حضور التاريخ في رواية"نورس باشا" لهاجر قويدري أنموذجا

The presence of history in the novel "Nawras Basha" by Hadjer Kuidri as a model

ط.د/ زغرات لغريسية*
جامعة أحمد دراية، أدرار
(الجزائر)
lag.zaghrat@univ-adrar.edu.dz

د. عبد الله كروم
جامعة أحمد دراية، أدرار
(الجزائر)
Keroum116@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/22 القبول:2022/04/27. تاريخ النشر: 2022/05/13

ملخص

أفادت الكتابة السردية الجزائرية المعاصرة من حقول المادة التاريخية واستحضرت في متونها من وقائع تاريخية وشخصيات وأماكن لتنسج حكايتها. نحاول سبر غمارها بحثا عن حضور التاريخ روائيا ضمن رواية"نورس باشا" للروائية هاجر قويدري التي عمدت إلى تكييف تاريخ الجزائر أثناء الحقبة العثمانية فنيا، فتنقلنا من التاريخي إلى الفني مبلورة رؤيتها للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية وحتى التاريخية لتلك الفترة.سنحاول في هذه الورقة البحثية إثارة بؤرة النقاش حول حضور التاريخ في المنجز الروائي لهاجر قويدري وكيف حفرت الروائية بمعاولها التخيلية في المسكوت عنه من التّاريخ؟ وهل إعمال التّخييل يعدّ تشويها له؟.

الكلمات المفتاحية: حضور التاريخ؛ رواية؛ هاجر قويدري؛ تخييل؛ نورس باشا.

Abstract :

Contemporary Algerian narrative writing has benefited from the fields of historical mate evoked what is possible in its content of historical facts, personalities and places to w story. We are trying to delve into it in search of a narrative presence of history with "Nawras Pasha" by the novelist Hadjar Koueidari, who deliberately adapted the history of during the Ottoman era artistically, moving us from the historical to the artistic, crystalli vision of the social, political, cultural and even historical life of that period. The researc provokes the focus of discussion about the presence of history in the novelistic achieve Hadjar Qwaidari, and how did the novelist dug with her imaginary shovels into the unsp history? Is the act of imagination a distortion of it؟

KeyWords: Presence of history ; Novel; Hadjar Qwaidry; Fiction; Nawras Basha

*المؤلف المرسل

مقدمة:

لقد انصب اشتغال الرواية العربية الحديثة على قضايا الإنسان ومشاكله وهواجسه اليومية،وارتبطت مراحل تطورها بمرجعيات مختلفة ،ومن ثم تغيرت أساليبها الفنية وتجددت طرائق تعبيرها، وتنوعت روافدها المعرفية فأفادت من الأجناس السردية الأخرى ومن الموروث الحكائي القديم، وصولا إلى النهل من المادة التاريخية باعتبارها من أهم مكونات التراث التي أصبحت تستند عليه الرواية الحديثة وتتكئ على أحداثه وتتمثل أشكاله. التعالق والتمازج بين التاريخ والرواية نتج عنه معطى إبداعي جديد أو ما يسمى الرواية التاريخية أسهم في رسم منحى الكتابة الروائية وجعل منها فنّا قادرا على استدعاء كم هائل من النصوص والخطابات على رأسها التاريخ.

كما أسهم التداخل المعرفي والإيديولوجي الذي عرفه الفن الروائي في خلقِ تفاعلٍ وسَّع مبدأ التشكيل ومنح إضافة نوعية لبنية سردية مغايرة أظهرت ملامح وتقنيات حديثة انفردت بها الكتابة الروائية عند هاجر قويدري فقد شكل استدعاء التّاريخ في الرّواية مساحة سردية واسعة، حيث عملت على استثمار الجوانب الحضارية والثقافية لفترة الحكم العثماني في الجزائر ضمن البناء المعماري لروايتها وبالتالي تجاوز التناول التقليدي للتاريخ.

فأين يبدأ التاريخ في النّص الروائي وأين ينتهي ؟وكيف اشتغل الحدث التاريخي ضمن المنجز السردي الروائي ؟ وإلى مدى استطاع التاريخ أن يتجلى في السردية الروائية الجزائرية المعاصرة ؟.

ولتحقيق المنشود من هذه الدراسة والإجابة عن الإشكالية،اعتمد البحث المنهج التفكيكي الذي فرضته طبيعة الموضوع والذي نحاول في ضوءه فهم النّص في كينونته المغلقة أولا ،ثم في حدود بنيته السياقية الأكبر المؤطرة لعملية إنتاجه ، وهو الانتقال الذي تكفله التفكيكية السردية بما تمنحه من آليات للقراءة وآفاق للتحليل والتأويل .

تكمن أهمية هذا البحث في سعيه إلى إثارة إشكال حضور التاريخ في امتداده نحو الرواية الجزائرية ومحاولة الإجابة عن أسئلة التداخل بينها ،وكذا إبراز مدى احتفاء الروائية الجزائرية "هاجر قويدري "ببعث الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية في حقبة ماضية غابرة وهي فترة الحكم العثماني بالجزائر ،والذي من شأنه أن يقلص من الأحكام المقزمة لروايتنا الجزائرية المخيّلة للتاريخ .

السردية التاريخية في الرواية العربية :

لا يختلف الدارسون في تأييد وجود تأثر مباشر لنشأة الرواية العربية بالأخرى الغربية ،بعد عصر النهضة خلال القرن التاسع عشر (19 م) ،وهذا لا ينفي تميز التراث العربي بنوع من السرد أو القص منذ القدم ،فالمتتبع لمسار تاريخ الآداب يفصح عن وجود بوادر للرواية العربية في العصر العباسي ، نذكر على سبيل المثال :"كتاب البخلاء "للجاحظ و"كتاب ألف ليلة وليلة "....وغيرهما .إلا أن هذه الإبداعات لم تعرف تقنيات خاصة كما عرفتها الرواية الحديثة .

فالرواية كفنّ ليست طارئا على ثقافتنا وليست فنّا غائبا عنّا فجذور الرواية تمتد إلى التراث العربي القديم، وتتوغل فيه لكن حركة التأثر التي أفادنا بها الغرب من علوم رسمت ملامح الرواية العربية وأقامت أعمدتها رغم وجود محاولات سابقة لكتابة الرواية عامة ، والرواية التاريخية على وجه الخصوص .نحسب "جورجي زيدان" الرائد الحقيقي لهذا الفنّ . الرواية التاريخية . ويذهب معظم النقاد إلى الكشف عن الغاية الأساسية لجورجي زيدان وهي رغبته الصريحة في تعليم التاريخ العربي والإسلامي للقراء ومحدودي الثقافة (القاعود ، 2008 ، ص20) . وقد كان إنتاجه غزيرا فيما يخص الروايات التاريخية التي وصلت إلى ثلاث وعشرين رواية وفقا للإحصاء المرجح وقد فسر(االقاعود ، 2008 ، ص20) رائد الرواية التاريخية "جورجي زيدان" السرّ وراء كتابة هذا النوع من الروايات "وأخذنا نهيئ أذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم بمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الإسلامية تبغا في "الهلال" لأن مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء ، وخصوصا في بلادنا.....فلا بد من نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة ، والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية " (القاعود ، 2008 ، ص21) فلا ريب أن "جورجي زيدان" . أبو الرواية التاريخية كما سمحنا لأنفسنا بتلقيبه . الفضل الكبير في نشر كم وافر من الثقافة والمعرفة سواء عن طريق الرّواية ، أو غيرها من الطرق ، ومن مؤلفاته نذكر :"تاريخ آداب اللغة العربية "أربعة أجزاء" ،"تاريخ التمدن الإسلامي . خمسة أجزاء . ، تاريخ مصر الحديث "مجلدان "...(ينظر ،القاعود ، 2008 ، ص21)

يمكن القول أن دور الرواية التاريخية في نظر "جورجي زيدان"ينحصر في كونها وسيلة لنقل المعلومات التاريخية والهدف منها"تعليمي" بالدرجة الأولى ،وغاية ثانوية وهي التسّلية كما يرى عبد المحسن طه بدر

(القاعود ، 2008 ، 21) بحكم الصيّاغة التي يحفها التشويق والإثارة التي تدفع القارئ لمتابعة مجريات الأحداث في الرواية .

لا أحد ينكر فضل "جورجي زيدان" في مجال كتابة الرّواية التآريخية بوصفه رائد وحامل لواء هذا الفن من الكتابات والذي تبعه الكثيرون في مجال التعريف بالماضي أو التراث وشحذ همة الأمة لمواجهة الظروف والمستجدات ،فمن جاؤوا بعده من المبدعين انبثقت كتاباتهم من وعي ديني وقومي ووطني يدفعهم للنهل من المادة التاريخية المشابهة لفترات المعاصرة التي يعيشونها، واستدعاء العناصر التراثية التي توقد الأمل في نفوس الشعوب المعاصرة والابتعاد عن واقع محبط ومثقل بالهموم والتشاؤم .

ورغم أن الكلام كثير في هذا المجال عن إيجابيات وسلبيات أعمال "جورجي زيدان "في جميع الأحوال قد أفاد الأدب العربي الحديث فائدة كبرى ،فكانت إبداعاته معين ثري لا ينضب فسح المجال لي أتباعه حتى يتمكنوا من التعبير عن روآهم ومشاغلهم الآنية متأثرين بما كتبه زيدان عن رواياته العديدة والتي صاغها بأسلوب سلس وسهل وشائق ، دفع بالكثير من المبدعين منذ مطلع القرن العشرين حتى يومنا هذا للاستمتاع والنهل من هذا الإرث الأدبي الكبير بوصفه الحافز والمعين للروائيين المعاصرين على دخول مجال الرواية التاريخية بكل عزيمة ونشاط لمواصلة المسيرة التي شقها زيدان مع استدراك النقائص والسلبيات التي أشار إليها النقاد والدارسون في هذا المجال .

الرواية والتاريخ طريقان في كتابة التاريخ روائيا:

شكلت العلاقة بين الرواية والتاريخ مجال جدل وبحث بين الباحثين والمهتمين في مجال النقد والتنظير الأدبي فالتقاطع و التعلق الذي ينتج من تداخل سياقين من سياقات الخطاب أحدهما تاريخي و الآخر روائي يفضي إلى ما يسمى بالرّواية التاريخية، والتي يتجاذبها تياران: " الأول يلح بعدم معارضة ما أثبتته المصادر والوقائع التاريخية، والثاني ما يحتمه العمل الإبداعي من جانب نمط القص المفضي إلى الانفراج، و التبئير على شخصية أو أكثر . (القاضي ، 2008 ، ص56)

فكان التاريخ أكثر نزوعا للواقع ، ساعيا للوصول إلى الموضوعية المجردة التي توازي موضوعية العلوم التّجريبية فتبدى "للمدافعين عنه أو المنتسبين إليه علما موضوعيا مبرأ من الأهواء والمصالح ؛ له أسانيده ووثائقه والجهود المتعددة التي أنتجت مناهجه ... "(القاعود، 2008 ، ص20)

فأما الروائي عليه أن يكون ملما بالمادة التاريخية حتى يتمكن من امتلاك المعطيات اللازمة للكتابة الأدبية وفسح المجال لإعمال التّخييل الأدبي في حدود ما تسمح به العملية الإبداعية، بوصف الرّواية منجز فنّي قائم على ما تحمله من جوانب فنّية وجماليّة التي تميز الوظيفة التّخييلية التي تقدمها الرّواية والوظيفة المرجعية التي يقدمها التي يقدمها التاريخ ويجعل حدا فاصلا بين الثنائيتين . فما هي طبيعة هذه العلاقة الجامعة بين خطاب تخييلي يستند إلى التاريخ ، وخطاب مرجعي ذو نزوع مرجعي يتوسل السرد طريقة أولى لنقل الوقائع وتحليلها؟.

يذهب جل الدارسين إلى اعتبار الخطاب التّاريخي شأنه شأن الخطاب الروائي ؛"خطاب سردي بالدرجة الأولى ،ومهما بالغنا في إسباغ البعد المرجعي عليه فإنه يظل خطابا منجزا في مقام محدد تتحكم فيه اعتبارات شتى ....، وكذا الشأن بالنسبة للرواية ، فهي وإن بدت لنا خطابا تخييليا ، لا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعا تاما (القاضي ، 2008 ، ص18)

وهنا تتم الإشارة إلى مسألة مهمة أثيرت منذ القدم باعتبار كاتب التاريخ مؤرخ الماضي، و أن الروائي مؤرخ الحاضر " التاريخ هو رواية ماكان و الرواية تاريخ ما كان يمكن أن يكون ". (القاضي ، 2008 ، ص 72)

لقد ظلت فكرة العودة إلى التراث، و استلهام عناصره هاجسا قديما في الأدب، والغاية من استحضار هذه المادة الجاهزة رسم القيم الإنسانية و المثل، و تسعى هذه المزاوجة بين ما هو فني و ما هو تاريخي للكشف عن السلوكيات الإنسانية سواء كانت قبيحة أم نموذجية وكذا القبض على القيم الجمالية المستوحاة من العمل الروائي.

2.حضور التاريخ في الرواية الجزائرية المعاصرة:

لقد شكلت التجارب الروائية الجزائرية المعاصرة، نقاط مضيئة في العمل الروائي، فكاتب الرواية يتحدث عن فترة زمنية بنص يكتنف بناء زمني ومكاني وشخصيات ووقائع حدثت أو متوقعة الحدوث، مأخوذة من التاريخ والواقع البشري أساسا ، فارتبطت الرواية العربية بالتاريخ منذ نشأتها ؛ ارتباطا وثيقا فأخذت تستقي مادتها منه بجروعات و أساليب مختلفة ، هاذفة إلى تعريّة الواقع و تشخيص الهموم و تتبع المتغيرات إنطلاقا من الماضي الذي اختارته سبيلا لتوطين الذات ، فسارعت إلى الإرتماء في أحضان التاريخ العربي و الإسلامي بكل حمولاته الحضارية و الرمزية مستمدة منه مادتها لبلوغ الغايات .

و قد كانت الرواية الغربية سباقة إلى الاحتفاء بالتاريخ و الوصول إلى نقطة النضوج ، على يد كل من " والتر سكوت "(1771 ـ 1832) و " ألكسندر ديماس الأب " (1802 ـ 1870) و غيرهما .

ماسبق ذكره آنفا لا ينف وجود تأثير عكسي لسردية العربية القديمة من حكايات ، و سير و تراجم على الرواية الغربية ، ف" تخييل التاريخ " لم ينتظر ق19 م أ، ق 20 م ليعلن حضوره في الأدب العربي ، إذ عادت الرواية العربية في وقت قياسي إلى النهل من ثراتها موظفة المادة التاريخية بطرق مختلفة ، و العودة إلى روايتنا العربية الأولى يثمن ذلك . فكتابات " سليم البستاني " و " جورجي زيدان " ..... يقيد هذا التلاقح و الناغم الفني في أعمالهم ، و يميز بين ماهو أصيل في أدبهم و ما هو غربي ، وصولا إلى الرواية العربية المعاصرة التي أصبحت تقبل الجمع بين المختلف و المؤتلف ، وبين ما هو دخيل و ما هو أصيل .

و دون الإسهاب و الإسترسال في هذا الموضوع الدي يحتاج مزيدا من البسط في غير هذا الموضع ، نجد أن الكثير من النقاد قد أجمعوا على أن التأريخ للرواية للمخيلة للوقائعي بشكل واضح يبدأما كتبه " سليم البستاني " بداية من " زنوبيا " التي صدرت سنة 1871 ، و بعدها " بدور " سنة 1872 و صولا إلى أعمال "جورجي زيدان " التي غطت كما وكيفا ماكتبه البستاني فأصدر " المملوك الشارد " 1891 ، " المماليك " 1892 .... و التي جمعت ضمن ماسمي بسلسلة روايات تاريخ الإسلام (1891 ـ 1914) .

وصولا إلى المنجز الروائي الحديث الذي يكشف عن سردية مغايرة تعكسها طرائق و أساليب جديدة في الكتابة الإبداعية تهدف إلى إعطاء رؤيا استشرافية لكامل طبقات المجتمع بكل توجهاته الفكرية و الاجتماعية و السياسة و الدينية و حتى السيكولوجية.

فلا ينكر الدارسون الفضل الكبير للتاريخ فيما وصلت إليه الرواية في معالجة مشاغل المجتمع و هواجسه باعتبار الرواية هي المرآة العاكسة لرؤية الكاتب و المبدع للعالم . (أقلمون ، 2010، 105) .

تكشف الرواية عبر سيرورة تطورها عن ارتباطها بالتاريخ بالرغم من اختلاف الطبيعة البنيوية بين المرجعي و المتخيل، فإن بين الزمنين أو التاريخين علاقة ضرورية وتتمثل في علاقة التفاعل بينهما، فيلتقي الروائي و المؤرخ في اعتمادهما على معطيات التاريخ ووقائعه منابع مشتركة ينهلان منها لكنهما يختلفان في كيفية التعامل مع المادة التاريخية، وكذا في هامش الحرية المسموح لكل منهما،والمقصود من هذا أن للتاريخ قوانيين وضوابط صارمة متحكمة في نقل الوقائع التاريخية والمتضمنة حقائق تدل عليها الوثائق .

وحضور التاريخ ضمن المنجز الروائي لا يرشح الخطاب الروائي على أن يصبح تاريخا، رغم استحضار أحداث التاريخ أو شخصياته فإنها لا تكون سردا حقيقيا للتاريخ وإنما سرد جمالي يطعمه البيان و يؤنسه الخيال، فكاتب الرواية إن حاول أن يرسم فترة زمنية من التاريخ، لكنه غيّر الحقيقة التاريخية فهو يصبوا في نهاية الأمر إلى إبراز إيديولوجية أو تمرير رؤيا دون أن يكون قد عبر عن تلك الفترة، وهذا ما نلمسه من خلال قراءتنا لرواية " نورس باشا " لهاجر قويدري " فنكشف مدى وعي الروائية من خلال محطات متنها الروائي لنقل الجو السياسي السائد في جزائر ما قبل الاستعمار الفرنسي من خلال ما عاشته شخصيتها " الضاوية " من مناخات اجتماعية وثقافية وسياسية أو ما يطلق عليه مصطلح "الفرص السردية " .

فقد اتخذت الرواية العربية الحديثة أشكالا و صوراً مختلفة في تعاملها مع التاريخ" تتمايز من كاتب إلى آخر، فمنها من حاول بعث حقبة تاريخية في أمانة ودقة و لم يتجاوز هذا الإطار المحدد و اهتم في المقام الأول بالطابع المحلي ،ومنها من بعث التاريخ الماضي لكي يجري عملية إسقاط على الحاضر بغية نقد الحاضر و تغييره، ومنها من انطلق من الواقع التاريخي و حوله إلى خيال صدق" . (منصوري ، 2012 ، ص 28)

فتعامل الرواية الحديثة مع التاريخ يتخذ أوجه كثيرة فمنها ما ينقل الأوضاع على أصعدة مختلفة اجتماعية ،سياسية ، اقتصادية ...لحقبة بعينها ، وآخر يصور العبر والأمجاد الماضية ويقارنها بالمعطيات الحاضرة .

وقد عمد الناقد بيير باربريس p .Berberis في دراسة حضور التاريخ في النص الأدبي ثلاث معاني هي:

1) . التاريخ كحكاية و قصة أو حكي، سرد أدبي أو ما يقصه الأدب و يصوره النص، و تقيمه مادة التشكيل الأدبي تملك بعدها التاريخي.

2) . التاريخ كواقع و مسار و صيرورة موضوعية ما يجري في المجتمع من أحداث و تطورات و صراعات منفصلة عن الذات و النظرة الفردية.

3) . التاريخ كخطاب و نوع معرفي يأخد التاريخ كموضوع علمي و بحثي يعطيه وجود عبر إجراءات خطابية و مفهومية.

إلا أن هذا التداخل يستدعي أهمية الإلمام بالمعرفة التاريخية من أحداث،أمكنة، أزمنة، أفكار، لغات و أشياء..... فهذه العناصر جميعها ضرورية في إقامة دعائم الرواية و توسيع بنيتها، والوعي التاريخي لدى الروائي مرتبط بقدرته الإبداعية أو بمدى تحكمه في تقنيات اشتغال على النصوص و تفاعلها، و اجتماع الوعيين. التاريخي و الفني . يساعد الروائي على إقامة دعائم رواية يتجادل فيها التاريخ و الفن، فتستثمر التاريخ و في الوقت نفسه تحافظ على تماسكها الفني.(منصوري ، 2012 ، ص 28) ،إذ تكمن قدرة الرواية المستحضرة للتاريخ في طاقتها المذهلة على إيهام قرائها بقدرتها على توليد المعنى من تجاويف سكون السجلات التاريخية ،وهذا ما نستشفه من قرائتنا لرواية "**نورس باشا** " للروائية الجزائرية هاجر قويدري .

3.مجمل القول في رواية"نورس باشا"لهاجر قويدري :

تدور أحداث رواية "نورس باشا "في فترة التواجد العثماني بالجزائر وتحديدا خلال القرن الثامن عشر ،في فضائين جغرافيين مختلفين ،تمثل الأول في إيالة تيطيري بين مدينة العزيزية قرية بطلة الرواية "ضاوية " والداميات بيت زوجها الباشا آغا حمدان ، أما الفضاء الثاني هو مدينة الدزاير الاسم القديم للجزائر العاصمة ،لتسرد الرواية أحداث تدور حول حياة فتاة اسمها الضاوية منذ أن بلغت سنّ الثالثة عشر من عمرها وهي تعيش اليأس خاصة بعد أن قرر والدها تركهم والهيام في الفيافي البعيدة قصد التعبد والتقرب إلى الله والزهد في الحياة ...ثم نتتبع حياة البطلة بعد انتقالها إلى الداميات وزواجها بالباشا حمدان الذي اعتبرته منفذ جديد لحياة أفضل لكن سرعان ما اصدمت بواقع مرير أشد قسوة من الأول ،وتستمر في العيش في تلك الظروف إلى حين توفي زوجها لتعود من جديد إلى قريتها وتبدأ حياتها تاركة وراءها ابنها الوحيد "إبراهيم "والذي سرعان ما فوجعت بخبر وفاته في البيت الكبير . تقرر البطلة الانتقال للعيش إلى مدينة الدزاير كما كانت تسمى أنذاك بعد ما أخدت نصيبها من الميراث الذي تركه زوجها حمدان .تنفتح الرواية بعد ذلك على مناخات وفضاءات جديدة تصور الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية لفترة الحكم العثماني في الجزائر ويتضح ذلك أكثر بعد زواج البطلة بكاتب الداي مصطفى باشا حاكم الجزائر خاصة وأنها أصبحت قريبة أكثر من مجريات الأحداث داخل بيت الحكم وخارجه لتسرد أحداث توتر العلاقات بين الباب العالي في إسطنبول وإقليم الجزائر وكيف استطاعت الجالية اليهودية بسط نفودها وتدخلها في تسيير الأحداث في تلك الفترة ،وقد برعت الكاتبة هاجر قويدري في رسم ذلك العالم الذي يتسم بالغرابة والبساطة بين متناقضات كثيرة : البداوة والمدينة ،بين الموت والحياة ...هذه الرواية مليئة بشتى مظاهر الحرمان والشوق للحبيب والأبناء ،شوق للعالم الذي لم نره بعد !. نهاية الرواية مفتوحة ولكن الروائية ذيلت روايتها باسعاف روائي كما سمته ربما من أجل أن تمنح القارئ أملا في العثور على سعادة حقيقية مرتبطة أساسا بالرواية ، فقامت بقتل الباشكاتب

وجعلت من الضاوية تحبل بعد فك رباط السحر ولكن النهاية لن تكون مرضية إلا بخيال القارئ نفسه .ما يسعنا إلا أن نفصح عن مدى إعجابنا بهذا المنجز الروائي والثناء على جهود الروائية وبراعة أسلوبها السلس والبسيط .

4. تجليات الهوية الثقافية والانتماء من خلال حضور التاريخ في رواية "نورس باشا " لهاجر قويدري:

عادت الروائية الجزائرية هاجر قويدري إلى حقبة زمنية قديمة تمتد من 1518م إلى 1830م والمتمثلة في تصوير المشهد الجزائري في الزمن العثماني ؛ لما لهذا التواجد من سلبيات وإيجابيات أسهم في إضافة ملامح جديدة إلى هويتنا ، وترك آثارا عمرانية وثقافية مستمرة إلى يومنا هذا ، ورغم الزخم التاريخي الضخم في تلك الفترة إلا أن الروائية لم تشأ التوغل في تفاصيل الأحداث السياسية الكبرى .فالروائية "هاجر قويدري" استطاعت في روايتها "نورس باشا "أن تنفلت من قبضة الأحداث التاريخية الكبرى التي ميّزت فترة التواجد العثماني بالجزائر ، واكتفت بانتقاء بعض المحطات التّاريخية الدقيقة والمفصلية لسرد تلك الحكاية الإنسانية التي فتحت مجال النّقاش عن "الرواية التّاريخية "في الجزائر .فكيف تستطيع الرواية بصفتها خطاب تخييلي أن تقيم علاقة شرعية مع الخطاب المرجعي ؟ أم التاريخ مجرد إطار للحكي ؟

يتفق جلّ الدارسين والنّقاد على ترعرع النّتاج الروائي الجزائري الحديث والمعاصر في أحضان " القضية الوطنية "بحكم الاحتلال الفرنسي "، وقد جاء حضور تاريخ الثورة التّحريرية الوطنية بقوة ضمن معظم المتون السردية بدرجات متفاوتة.

فترة الحكم العثّماني التركي بالجزائر تجاوز الثلاث قرون، إلا أن استحضار تلك الفترة من التّاريخ كان بنسب ضئيلة ضمن المتون السردية الجزائرية، رغم الأثر الرّاسخ في البناء المعماري وفي قاموس اللّغة العاميّة والثقافة الشعبية. يشير انتقال بطلة الرّواية "الضّاوية "إلى مدينة الدزاير في نهاية الرواية ربما لتسرد لنا مستجدات الأحداث التي حدثت داخل بيت الحكم العالي كونها أصبحت فردا من أفراده وأيضا "شاهدة "على ما آلت إليه تلك الفترة التي مهدت لاحتلال فرنسي طويل الأمد .

تجلت الهوية الثقافية في "رواية نورس باشا " من خلال استحضارها للموروث الثّقافي والحضاري لفترة الحكم العثماني بالجزائر، ويُعد الخطاب التاريخي أصدق الخطابات التي تعبر عن الخصوصية الثّقافية والانتماء، إذ أن المنجز الروائي"نورس باشا "غني بالموروث الديني والعادات والتقاليد،كما استدعت الروائية في متونها السردية جوانب من الحياة الاجتماعية فترة العهد العثماني: الزّواج، الطّلاق، تجهيز العروسة، الذهاب إلى الحمّامات، زيارة الأولياء الصّالحين، تجهيز الجنائز، السحر والشعوذة، التطيّر"عبثا أقنعتني الخادمة العجوز أن البكاء وقت الحيض سيجلب الأرواح الشريرة وأنها ستسكنني لأنني غير طاهرة..." (قويدري 2011 ، ص 46)

تظّهر الروائية بعض المعتقدات التي تحملها بعض العجائز الجزائريات في تلك الفترة والتي مازالت متوارثة لحد السّاعة في بعض المناطق من الوطن .كما كان للأغاني والأمثال الشعبية وغيرها نصيب :

لوذقت ياغزالي ما ذقت من هواك

أو قد علمت حالي وما لقيت في ذاك

لجدت بالوصال يا سعده من راك (قويدري 2011 ، ص 46)

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على تميّز الرّواية العربية المعاصرة عامة ورواية "نورس باشا" على وجه الخصوص حيث أصبحت تعيش نوعا من الانفتاح على الأجناس الأدبية وغير الأدبية و أضحى خطاب الرواية نصا جامعا لجملة من الخطابات تتحاور فيما بينها ، باعتبار الرواية جنس أدبي لا يخضع لقوانين ثابتة ، وهذا ما أكسبها طابعا حواريا وتداخلا مع بقية الأجنّاس الأدبية الأخرى.

وقد تجلت العادات والتقاليد هي أيضا ضمن المتن الروائي تقول الضاوية:" لا أحد سيقوم بذلك سواي، سأدخل برجلي اليمنى، كما أني سأطلي عتبات الغرف بالحنّة كي لا يلحقني الميمون، تقول أمي أن حظي العاثر سببه الميمون الذي قلب جفنة الطعام وجلس فوقها، كيف هو هذا الميمون ؟ حتى تردد النسوة في قريتي ــ لازهر لا ميمون". (قويدري 2011 ، ص 48)

ونلحظ أنّ رواية "نورس باشا "تظهر فيها الهوية الدينية والانتماء بجلاء "قررت الذهاب في الصباح الباكر إلى القلتة الغربية ...سوف أموت هنا عند المياه ،أليست تعني المياه في ديننا طهارة "(قويدري 2011 ، ص 68) ، "قادتها أقدامها إلى جامع المدينة ، غسلت دمائيبصبر وتوضأت وقبعت في جزء معزول من الجامع، لم أكن صليت قبل ذلك ولا أعرف كيف يكون ذلك لكنني سجدت طويلا حتى شعرت براحة تملأ جسدي ..." (قويدري، 2011 ، ص147) يكشف ما سبق اقتباسه من الرواية عن ثقافة الشخصية الرئيسة البسيطة التي تملك من الثقافة الدينية ما توارثته من أفكار وسلوكيّات من المحيط الذي تعيش فيه، لأنّ جو الرواية العام ينقلنا إلى ظروف المجتمع الجزائري أثناء فترة الحكم العثماني بكل تفاصيله اليومية من خلال سرد حكاية "الضاوية" وحياتها في مدينة الدزاير،إذ تعيش الشخصيات الروائية داخل المتن الحكائي لتعبر عن جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية لفترة الحكم العثماني في الجزائر "في مدينتنا يسمح للصبيّة بالمشاركة في الرعي والزراعة حتى بلوغها وعندما تداهمها الدورة الأولى سوف تقبع في البيت وتتعلم أشغال المنزل ولن تخرج إلا لبيت زوجها ..."

(قويدري، 2011 ، ص93)

ربما يحيل التوظيف الهائل للموروث التراثي إلى البحث عن الهويّة الوطنية انطلاقا من المادة التاريخية باعتبارها حاملة لذاكرة الشعوب، في محاولة لإيصال الماضي المنسي بالحاضر، وإعادة بعث الظروف الحياتية للمجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية قصد إعادة كتابة الذاكرة التاريخية روائيا لتعميق الوعي بالهوية الأصلية على جميع

الأصعدة، وفي نفس السيّاق تظهر وجهة نظر الروائية حول فترة العهد العثماني والتي ترى بأنها فترة هامّة جدا من تاريخ الجزائر الثقافي.

5. التقاطعات التاريخية و التخيّلية في رواية " نورس باشا":

نقصد بالتقاطع التاريخي في رواية "هاجر قويدري " الزمن التاريخي الذي يربط بين الرواية والفترة التّاريخية، إذ نلفي الروائية في منجزها الروائي "نورس باشا " تختار فترة زمنية من تاريخ الجزائر في العهد العثماني، إذ ركزت في نص روايتها على الحياة الثقافية والاجتماعية للفترة العثمانية، لتمرير ما يحيط بحكاية "الضاوية "من مناخات اجتماعية وثقافية وسياسية ، أما التّقاطع الثاني فيظهر في سير الأحداث، إذ يُكمل نص الرّايس الذي يعتبر عمل فنّي آخر للرنص نورس باشا، ويظهر ذلك من خلال شخصية الباشكاتب، التي هي الشخصية المجهولة في نص نورس باشا، وتترك"هاجر قويدري " نهاية أحداث القصة مفتوحة وتختمها بالإسعاف الروائي، إذ تفتح خيارات أمام القارئ ليحدد نهاية القصة ومن ثم نهاية "الضاوية" مع "الباشكاتب".

أ-الفضاء التاريخي:

إن الفضاء عنصر بنائي جوهري يؤثر في العناصر البنائية الأخرى في النص و يتأثر بها و اتضح جليا بأن الفضاء التاريخي هو الغالب على جو الرواية فمن استنطاق فضاء " القصبة " و التركيز على الزخم التراثي العريق للجزائر، إلى الكشف عن تاريخ و عادات المجتمع الجزائري في تلك الفترة، فقد سلطت هاجر قويدري الضوء على القصبة كاشفة عن عادات سكانها و تقاليدهم و كذا لباسهم التقليدي مبرزة تمسك الجزائريين بهذا الموروث العريق رغم وجود ثقافة دخيلة ، إضافة إلى حضور الجزائر بسواحلها و قصورها و حماماتها....."في رزمة قماش جمعت بعض الصابون والليفة والغاسول الذي حضره كتونيوس في الحال حيث أضاف هذه المرة البابونج ..."

(قويدري، 2011 ،ص59) .فالفضاء يظهر المكان مملوءا بالأشياء و التي تُقدم في الرواية عن طريق الوصف

(خليل ، 2010 ، ص 116) باعتبار الفضاء ركحا لأحداث وقعت في فترة زمنية معينة ينقلها السرد على لسان الشخصيات بكل حمولتها النفسية والأيديولوجية ...

فالفضاء في رواية " نورس باشا " كثير و متعدد، كالقرية و القصر و الأراضي الزراعية و غيرها من الفضاءات التي كانت تجول بينها الشخصية البطلة " ضاوية " من خلال سرد أحوال مدينة الدزاير و ما تحتويه من عادات و تقاليد تؤرخ لتلك الفترة.

و سعت الروائية من خلال وصف الأمكنة إلى إبراز الأثر النّفسي لشخصية "الضاوية "و ما يخلفه من ذكريات راسخة فكثيرا ما كانت توقف الروائية الأحداث لتصف المكان و أجواء مدينة "دزاير " هذه المدينة تصحو باكرا، سمعت وقع الأقدام في الزقاق القريب، ثم صوت الصغار وهم يركضون وكذا أصوات المطارق التي أن الحدادين قد بدؤوا العمل..... كل بيوت "دزاير" تتوسطها شجرة " . (قويدري 2011 ، ص 67)

الإسهاب في وصف أجواء المدينة يشعرنا باهتمام الروائية بالتفاصيل الصغيرة للحياة اليومية التي تعكسها مجريات الأحداث في تلك الفترة "كانت أيام اكتشاف جميلة ،صارت تخطفني التفاصيل الصغيرة ...." (قويدري، 2011 ،ص61)

كما نجد تنوع الفضاءات الواقعية داخل المتن الروائي مثل البيت الذي يعد المأوى و الحصن الأساسي للضاوية و لكل امرأة، و قد تنقلت الضاوية إلى أكثر من بيت في الرواية، فمن بيت زوج أمها في قرية عزيز و بيت سعدة بوهران وكذا البيت الكبير في الداميات و حتى القصور في دزاير " عند مدخل بيت سعدة ودعتني قائلة، اليوم سأنام مرتاحة البال.... سأكون فيها أميرة هذا البيت..." لا أحد يبيع بيته في قريتنا البيوت عندنا مقدسة و تعني الكثير... "، العلاقة القائمة ما بين الإنسان و الفضاء علاقة تبني على التأثر و التأثير معا في تشكيل وعي الإنسان.

الفضاء ات في الرواية ليست مجرد تصوير أو وصف خارجي بل هي مشاهد ستحكم الأحداث و تحدد الشخصيات "(عثامنة ، 2014 ، ص 22) وهنا تكمن أهمية المكان في كونه يشكل إطارا عاما للحركات و الأحداث في الرواية وكذا و الشخصيات التي عاشت في فترة الحكم العثماني.

1. الإسقاطات التاريخية على رواية "نورس باشا ":

بما أن الرواية جنس أدبي " يحيا في الحاضر، و يتذكر الماضي في الحاضر "(مخائيل ، 0000 ، ص 15) ، وهذا ما يحرّك تفكيرنا للمقارنة بين ما يسمى منجزا روائيا، و بين ما يسمى عملا تاريخيا في إطار العملية التخيلية التي عمدت إليها الروائية، رغم تلك الذاكرة التاريخية الكبيرة التي تضمنت رواية " نورس باشا "، إلا أن الروائية لم تهتم بالتوغل في تفاصيل الأحداث السياسية الكبرى لتلك الفترة ، بل ركزت اهتمامها داخل العوالم الذاتية للشخصيات من خلال تقديم قراءة عميقة لذهنيات مختلفة عاشت تحولات تاريخية لكنها ظلت محكومة بالأعراف والتقاليد ولم يُقدر لها أن تنفتح وتتطور "أنت غرناطية مثلي ، زوجك ليس يشكو من شيء ،كنت أنت المقصودة بالسحر ،جارة قديمة لزوجك قامت بذلك في الحناء ليلة عرسك "(قويدري 2011 ، ص 167)

ولم يتعد حضور التاريخ الإطار العام للرواية، و من هنا نتوصل إلى أنه لا يجب نصب مقارنة بين ما ورد في الرواية والحدث التاريخي لأن " الرواية لا تنوب عن التاريخ و لا ينوب التاريخ عن الرواية، لأنهما حقلان مختلفان جمالي و معرفي بل أن التاريخ لايستق من الرواية، لأنها نص فني يطرح رؤيا و لا ينتج معرفة " (الفيصل ، 2003 ، ص 56)

فالرواية لم تركز على طبقة الباشاوات كما سارت العادة في الروايات التي تناولت تلك المرحلة التاريخية ومهدت لتلك المرحلة منذ العتبة الأولى للرواية ألا وهي العنوان :"**نورس باشا** "الذي جمع بين كلمتين :نورس والتي تعني الطائر الجميل الذي يستوطن سواحل البحر الأبيض المتوسط وقد جاء وصف النوارس على لسان بطلة الرواية "الضاوية " إذ تقول "رأيت النوارس ...ترى أين تختبئ النوارس عند نزول المطر ؟ تصنع الأعشاش ...تعيش بين

الصخور ..." (قويدري 2011 ، ص 96) ، أما الكلمة الثانية من العنوان "باشا"تحيل اللفظة إلى اسم ترة مرتبة من الحكم العثماني في الجزائر وهي مرحلة البشاوات دون الغوص في تفاصيل حياتهم السياسية ، ربما سعت الروائية إلى الإحالة على الفترة التي تحاول تسليط الضوء عليها وكأنها بذلك تدخل القارئ في كبسولة الزمن الروائي قبل قراءته للمتن .

يمكن القول أن الروائية ركزت على الهامش من التاريخ لتلك الفترة بنظرة " استشرافي " أبرزت الكثير من الطقوس الناتجة عن تراكمات ضمن المخيل الشعبي " وجدتها أمام شمعتها.... تدعو الله أن يفك رباطها.... أشعلت شمعتي أمام شمعتها و همست لها: يفتح رباطك إن شاء الله ". (قويدري 2011 ، ص 48)

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على التشبع بأفكار السحر والشعوذة عند فئة من المجتمع في تقرير المصائر، ويكشف عن البنية التفكيرية لطبقة العامة من المجتمع الجزائري في تلك الفترة.

وتتحرك الأحداث وتتداول متفاعلة مع الشخصية الرئيسية خاصة بعد زواجها بالباشكاتب وقربها من بلاط الحكم واطلاعها على بعض المجريات التي تدور بداخله والتي ينقلها الباشكاتب إلى زوجته الضاوية "تفضلي ياسيدتي الحاكمة هذه آخر رسالة وصلت اليوم من الباب العالي : 2**فيفري 1801**

من القبطان باشا القسطنطيني إلى حاكم الجزائر الداي مصطفى "اعلم أنني أصدرت أوامر إلى موانئ الخلافة كافة، من أجل طرد كل أعوانكم كما أصدرت الأمر بعدم تزويد الإيالات بأي جندي وعدم السماح لها بالقيام بأي تجنيد ...." . (قويدري 2011 ، ص 132)

حضور هذه الرسالة المبعوثة من قبطان باشا القسطنطيني إلى حاكم الجزائر آنذاك والتي تعد وثيقة تاريخية حقيقية إلا أن استحضارها داخل المتن الروائي لم تكن غايته التوثيق وإنما لتسهم في البناء المعماري للرواية بطريقة فنية جمالية "بقيت طول الوقت وأنا أفك حروفها وبعد أن تعبت دخلت في صدره وقلت :يبدو أنه لا أحد يفك الحروف والطلاسم غير جسدك " . (قويدري 2011 ، ص 48) ومن هنا يتضح براعة الروائية هاجر قويدري في النهل من المادة التاريخية لنسج ما يمكن نسجه من فرص سردية تدعم البناء الفني للرواية وتفسح المجال للتخييل المطلوب في بلورة أفكار ومشاعر الشخصيات الحاملة لإيديولوجيات وأفكار لها بعد نفسي واجتماعي .

و قد تخلل المتن الروائي بين الفينة و الأخرى إحصائيات للغنائم كانت تقوم الضاوية بتسجيلها في مذكراتها " غنمت سفينة الرايس بن زرمان و سنبك الرايس حميدو و سنبك الرايس حسن سفينة نابولية محملة بالزيت في 18 من جمادى الثاني الموافق لـ 06 نوفمبر 1800 ويقدر المنتوج بقيمة 33691 فرنك و 80 سنتيما . (قويدري 2011 ، ص 164)

وهذه المعطيات التاريخية قد تكون أرضية لمحطات روائية تسهم في البناء الفني للرواية " مسك عني الريشة وكتب أجمل الأميرات أنت....." . (قويدري 2011 ، ص 132) فلهاجر قويدري طريقة خاصة في تناول المادة

التاريخية و التي تستحضر السند التاريخي و تعيد صياغته بتقنيات سردية تجعل المضمون التاريخي يخرج بحلة سردية جديدة، فالروائية أرادت أن تتحسس التاريخ بمنظور سردي مختلف يقوم على المراوحة بين ما هو سطحي فيما تعلق بالمرجع، يبين ما هو درامي ضمن المنجز الفني الروائي.

الخاتمة:

في ختام بحثنا الموسوم "حضور التاريخ في رواية نورس باشا " لهاجر قويدري وجدنا أن الؤلفة الجزائؤية غاصت في التاريخ وجعلت قراءها يسافرون إلى الماضي البعيد ، حيث رصدت لنا من خلال متنها الروائيجانبا من الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية ....التي جرت في فترة الحكم العثماني بالجزائر وفق نوافد سردية متنوعة والتي أوصلتنا إلى مجموعة من النتائج أهمها :

1) . استطاعت الروائية في مزجها بين ما هو تاريخي وبين ما هو تخييلي أن تقدم رؤيا تاريخية تخييلية ليس لغرض نقل المادة التاريخية واستحضارها فحسب ،بل لمعالجة الوقائع والمقارنة بين الماضي والحاضر والواقع والتخييل.

2) . أهمية الرواية التاريخية ليس إعادة سرد الأحداث المعروفة والشهيرة، بل زرع الحس الشعوري للناس اللذين برزوا في تلك الأحداث، والأهم هو أن نعيش الدوافع الاجتماعية والإنسانية لسلوكياتهم.

3) . الرواية التاريخية عمل فني يستعمل التاريخ وأحداثه في قالب فني، لمعالجة قضية تاريخية وقعت في الماضي، وفيها عبرة تخدم الحاضر .

4) . الشخصيّة مكون هام من مكونات الرواية، فهي المحرك الفعلي للأحداث في رواية "نورس باشا " بالإضافة إلى تعدد تصنيفاتها في الرواية.

5) . نجحت الروائية في توظيف الأبعاد الخارجية والداخلية للشخصيات، مما ساعدنا في معرفتها، فقد أعطى لها صفة تخييلية توهم بواقعيتها.

6) . للروائية دور فعال في انتقاء أسماء وملامح الشخصيات بما يتوافق مع موضوع الرواية.

7) توظيف الفضاءات التاريخية في الرواية، أضفت عليها مسحة تاريخية توحي للقارئ بواقعيتها.

8) . الروائية قد ركزت على المرجعية التاريخية والدينية والاجتماعية، مما منح للرواية صدى كبير على المتلقين.

9) . سرد الأحداث الماضية بطريقة فنية يبتعد بها عن تجريد الحقائق التاريخية.

10) رواية نورس باشا عالجت قضايا الحاضر من خلال العودة إلى الماضي، وإسقاط الأحداث

الماضية على حياة الإنسان المعاصر، وخاصة الواقع السياسي المزري للشعوب العربية.

11) لقد مثلت الحوادث التاريخية في رواية "نورس باشا"،عصبا مركزيا في سير الحكي، فجاء الخطاب التاريخي سلسا ظريفا في الرواية مركزا على الهوية الثقافية والانتماء الحضاري، الأمر الذي جعل من "هاجر قويدري " تستدعي الفترة العثمانية، مريدة بذلك كتابة الذاكرة وبالتالي استدعاء الهوية الثقافية ووصل الماضي المنسي بالحاضر، ويظهر هذا الاستدعاء جليا في وفاء الكاتبة للتاريخ العثماني بالجزائر وشخصياته وأحداثه،ولو من باب التجريب الروائي فقد استطاعت الروائية في مزجها بين ما هو تاريخي وبين ما هو تخييلي أن تقدم رؤيا تاريخية تخييلية ،ليس لغرض نقل التاريخ واستخضاره بل لرسم ملامح الهوية الثقافية والفكرية لتلك الفترة .

11)أهم خاصية ميزت رواية "نورس باشا "توظيف الروائية تقنيات السرد المعاصر في استحضار أهم مااميز تلك الحقبة التاريخية الطويلة خاصة في عنصر الزمن ، فكانت تلجأ إلى تقنية الاسترجاع حيث تعود إلى الماضي وهي في المستقبل لغرض إعطاء المتلقي صورة عن أحداث أو شخصيات روائية لم يصل إليها السرد مما أضفى على الرواية عنصر التشويق .

قائمة المراجع:

Bibliographie

1) أقلمون ,ع .ا : *.الرواية والتاريخ، د ت، صفحة* .(.1 ed) *105*الجزائر :دار النشر للتوزيع.
2) الفيصل ,س .ر .(2003) .، *البناء و الرؤيا، مقاربات نقدية*، .(.1 ed)دمشق :من منشورات إتحاد الكتاب العرب.

3) القاعود،ح .(2008) .الرواية التاريخية ـدراسة تطبيقية ،ـط1، .(1 ed.)دار العلم والإيمان.
4) القاضي ,م .(2008) .*رواية والتاريخ ـ دراسات في تتخييل المرجعي ـ ،ط1،* .(1 ed.)دار المعرفة للنشر.
5) خليل ,إ .(2010) .*بنية النص الروائي ، ط 1، ، ص* .(1 ed.) *116*الجزائر :منشورات الأخلاق.
6) عثامنة، ,ف .ص .(2014) .*السرد في رواية السيرة الذاتية العربية، ا، ط1، ، ص* .(1 ed.) .*22* الاردن :لوراق للنشر والتوزيع.
7) قويدري ,ه .(2011) .، *نورس باشا،،الطبعة الأولى، سنة ،ص* .(1 ed.) .*46*:الجزائر :منشورات ANEP.
8) مخائيل ,ب .، .(0000) .*شعرية ديستويفسكي*) .(1 ed.) .ج .ن .تكريتي (.Trans ,بغداد : منشورات دار تبقال للنشر.
9) منصوري ,ن : .(2012) .*الموروث السردي في الرواية الجزائرية، روايات طاهر وطار وواسيني الأعرج أنموذج، د.ط، ص* .(1 ed.) *28*باتنة :جامعة الحاج لخضر)باتنة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية .